سلسلة دار المأمون للترجمة والنشر
مهرجان بابل عاصمة الثقافة العراقية 2008

أسرار بابل



ف. آ. بيلافسكي

أسرار بابل

ترجمة

أ. د. رؤوف موسى جعفر الكاظمي

دار المأمون للترجمة والنشر

أسرار بابل

ف. آ. بيلافسكي

وزارة الثقافة

دار المأمون للترجمة والنشر

ص.ب. 7018

البريد الإليكتروني: **Dar_Mamoon@yahoo.com**

جمهورية العراق ــ بغداد

طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة

مترجم عن الروسية

المحتويات

كلمة المؤلف

بابل اسم يتداعى لدى كل منا ويقترن ببرج بابل، بهرج ومرج بابل، ببلبلة الالسن، بجنائن سميراميس والملك نبوخذ نصر، بالاسر البابلي، بوليمة الملك بالشاصر والعبارة الذائعة الصيت <<مينه، مينه، تيكيل اوبارسين >> التي باتت رمزا لمصير محتوم و أُفول سمو عالمي.

سمعنا عن كل ذلك منذ مقاعد الدراسة، قرأنا عنه ومازلنا نقرأ في الكتب والمجلات، وغالبا ما نتحدث عنه بانفسنا. والسؤال هو لماذا بابل؟ أجل انها لغرابة! قدم غابر اكتنفته الاساطير ومع ذلك ليس ثمة انسان يكاد لا يعرف شيئا عن بابل ولم يردد بنفسه عبارة <<هرج بابل>> معنيا بها بناء برج بابل بقدر ما يعني الهرج الاعظم. حتى انه جاء على لسان احد أبطال الفلم الفرنسي الكوميدي << الشيطان و الوصايا العشر>> -<<حين لا تراعى القوانين يكاد يكون ذلك بابل>>. أجل لقد تغلغلت بابل فينا حقا حتى النخاع.

والسؤال: ترى كيف كانت بابل في حقيقة الامر؟ هل قام الهرج البابلي و عمت البلبلة الذائعة الصيت ام ان كل ذلك هو محض خيال؟ عن هذا يجري الحديث في الكتاب المعروض امام أنظار القراء. والكلام هنا لا يدور عن بابل عموما، وانما عن بابل عصر الهرج يوم عاش نبوخذ نصر، وأقام بالشاصر الوليمة، عن وقائع ذات خمسة وعشرين قرنا من القدم. ولكن في البداية ثمة مايقال عن موقع الاحداث وسالف تأريخنا.

كل ذلك جرى في بلد يدعى الان العراق. هكذا اسموه العرب الذين استوطنوا فيه في القرن السابع بعد الميلاد. وهو يقع مابين دجلة و الفرات. و لهذا اطلق عليه اليهود في القدم سيننا آر أي الرافدين، فيما اطلق عليه الاغريق ميسوبوتاميا، أي مابين النهرين. الجنوب من بلاد الرافدين عبارة عن سهل مستو مكون من رواسب نهرية. هناك كما في مصر الواقعة في اسفل وادي النيل ولدت الحضارة لاول مرة في نهاية الالف الرابع قبل الميلاد.

في الاستخدام اليومي كثيرا ما نستعمل كلمتي <<حضارة>> و <<ثقافة>> كمرادفتين. وهذا على وجه الدقة ليس بصحيح. فالثقافة نشأت مع الانسان و ستبقى مادام النسل البشري باق. أما الحضارة فانها ولدت قبل خمسة الاف عام. و هي عبارة عن مرحلة معينة من تأريخ البشرية <<الحضارة هي تكلم المرحلة من التطور الاجتماعي التي يصيب فيها توزيع العمل والتبادل الناجم عنه بين الافراد و كذلك الانتاج السلعي الجامع لكلتا العمليتين ازدهارا كاملا و يحدث انقلابا في مجمل المجتمع السابق[1]>> .

الحضارة تتصف بالتوزيع الاجتماعي للعمل و بانقسام المجتمع الى طبقات متنازعة و باستغلال الانسان للانسان ووجود دولة.

منشئوا الحضارة في جنوب بلاد الرافدين هم السومريون، ذلكم الشعب الذي بقي حتى الان سرا غامضا في كثير من الامور. فمثلا من غير المعروف من اين حلُّو في هذا البلد الذي ما قُيِّضَ له ان يكون وطنهم حتى نشأ تحت انظارهم و باسهامهم الفعَّال. السومريون والاكديون الساميون الذين استوطنوا

الى الشمال منهم أطلقوا على جنوب الرافدين بلاد سومر وأكد[*]. وكان ذلك في نهاية الألف الخامس قبل الميلاد.

السومريون الذين استأثروا بالدور الرئيس ظهروا في أسفل حوضي دجلة والفرات. وقد عرفوا تربية المواشي والزراعة والمعادن، أي تلك المنجزات ذات الصلة بمجمل الانتاج و التي مهدت ولادة الحضارة. كما ان السومريين كانوا من الأقوام الرائدة في تدجين الثور، والذين تعلموا استخراج المعادن و صهرها. وتدلل على ذلك الكلمتان السومريتان <<(ن) كَو(د)>> - ثور و <<ورودو>> - نحاس اللتان اقتبستا في العديد من لغات العالم[**].

جنوب بلاد الرافدين كان اشبه بمهلكة. السومريون و الأكديون ألفوا انفسهم هناك ليس بمحض إرادتهم، وانما تحت ضغوط جيران اشد قوة. كما تعين عليهم خوض صراع مع قوى الطبيعة الجبارة. وقد جاءت صدى لذلك

---

[*] سمي بسومر الجزء الجنوبي المتاخم للبحر من البلاد، فيما اطلق على الجزء الشمالي منه أكد. و كانت الحدود الفاصلة ما بينهما تمر فوق مدينة نيوبور بقليل.

[**] من كلمة **gu(d)** جاءت الكلمة المصرية القديمة **ka**، القبطية **ko**، السنسكريتية **ganh**، الايرانية القديمة **gbus**، التبت-برمية **nagjeu**، **Hgp**، **gh**، **gp**، الروسية القديمة **говядо** - غوفيادو(و منها كلمة **говядина** التي تعني لحم البقر)، الألمانية **kuh**. كل هذه الكلمات تعني ثورا، بقرة، ماشية. أما من كلمة **urudu** السومرية فتستمد أصولها الكلمات اللاتينية **rudus** او **raudus**، السلافية **pyda** (رودا)، الالمانية **Ers** بمعني نحاس، خام، معدن.

الصراع الفردي لبني البشر مع الطبيعة أسطورة الطوفان العالمي التي دخلت <<ملحمة جلجامش>> السومرية، و منها اقتبست في التوراة.

هناك قهر البشر الطبيعة. وببنائهم منظومة اروائية فصلوا اليابسة عن الماء. لقد خلقوا بجهدهم، وبمعنى الكلمة، بلدا من أراضٍ تغمرها المياه و المستنقعات، الأحراش و الصحارى.

في غمار صراعهم مع الطبيعة طوَّر السومريون و الاكديون قواهم الانتاجــية وخلقوا موارد ثورة اجتماعية لا نظير لها حتى اليوم. لقد تغيروا هم انفسهم وغيروا مجتمعهم حتى نشأت لديهم علاقات انتاج جديدة لمصالح مادية وضعت اساس الحضارة.

انها طريقة الانتاج التي سميت بــ<<الاسيوية>>، حيث اكتشفت آثارها لدى شعوب آسيا (وعلى وجه الخصوص في الهند) و التي عُدت كأول نمط لبُنية اجتماعية-اقتصادية طبقية[2]. كما اكتشفت في الوقت الحاضر و استقصيت رواسب قوية لطريقة إنتاج آسيوية لدى شعوب افريقيا الاستوائية[3].

وكما وجدت كمرحلة اولى من مراحل قيام الحضارة في مصر القديمة (العصر القديم- antiquus عصور المملكتين البكر والقديمة في الالف الرابع-الثالث قبل الميلاد)، وفي المجتمع الكريتو-مقدوني، لدى الالينيين لغاية القرون الثامن-السادس ق.م.، وفي ايطاليا في روما لغاية القرن الرابع ق.م.، في اسبانيا و في بلاد الغال و بريطانيا ما قبل الاحتلال الروماني، في الهند القديمة(ثقافة هرابًّا، عصر الفيدا) وفي الصين القديمة (عهود سي، شان-إين، سي تشجوو)، كذلك لدى العديد من الاقوام الرحل في العالم القديم (السكيفيون،

الهون، الترك، المغول وغيرهم)، لدى الاسكندنافيين عهود الفايكنغ البولينيزيين، الانكا، المايا و المكسيك في امريكا القديمة والخ. طريقة الانتاج الاسيوية لايجوز عدها اليوم مجرد آسيوية. إنها مرحلة تاريخية عامة مرت عبرها بشكل او اخر جميع الشعوب المتحضرة. ولهذا يفضل تسمية هذا النمط الأول للبنية الاجتماعية-الاقتصادية للحضارة بنمط البنية القديم.

إن كل مجتمع قديم و تبعا لظروف نشأته و حياته، و كذلك تبعا لمراحل التطور اكتسب ملامحه الخاصة، كما اكتسبت المجتمعات جميعها ملامح عامة مما يتيح اعتبارها تنتسب الى منسب واحد بالذات. فلقد تشكل اساس اقتصادها بوحدة الزراعة (أو تربية المواشي) و الصناعة.

كما ان الوحدة اللاانفصامية للمدينة و القرية والتي اولدت علائق انتاج مناسبة تجلت بنمط معين من علائق الملكية. <<في الشكل الاسيوي (الغالب الاعم) ليس ثمة ملكية فرد مستقل، وإنما وجدت حيازته. المالك الفعلي و الحقيقي هي المشاعية، وبالتالي فإن الملكية بمثابة ملكية عامة للارض>>[4].

المجتمع القديم عرف التنازع الطبقي واستغلال الانسان للانسان. وقد ضمت المشاعية التي كانت المالكة لوسيلة الانتاج الرئيسية، أي الارض في عدادها افراد القبيلة الغالبة، في حين كان السكان المغلوبون يحرمون من الملكية و يصبحون ملكا للغالب. في المجتمع القديم كانت تتجابه طبقتان: هما الارستقراطية السلالية المكونة للمشاعية الحافظة للنظام السلالي-القبلي و طبقة الغرباء المغلوبين الذين ألفوا انفسهم في وضع الموالي والعبيد ممن كانت صفوفهم تتزايد باستمرار بالاسرى والدخلاء المنقطعة صلاتهم لسبب او

اخر بقبائلهم. إنهم البتريد* والديموس** في مقاطعة أتَّك اليونانية القديمة، الاسبارطيون (الاحرار) و الاليوط***، في اسبارطة، الاشراف والدهماء في روما القديمة، ذوو الآذان الطويلة و ذوو الآذان القصيرة في جزيرة باسخي، العظم <<الابيض>> والعظم <<الاسود>> عند المغول وهم الفارنيون في الهند القديمة و هلم جرا.

في سومر كانت هاتان الطبقتان تدعيان بالناس الاكابر (**Lú-gu-La**) و الدهماء (**uku**- الاسافل أو الاراذل). ولقد تحول التنظيم السلالي- القبلي للطبقة المتسيدة في الظروف الجديدة الى دولة<< هي جهاز سيادة طبقية، جهاز إضطهاد طبقة لطبقة اخرى، وهي كيان من شأنه إضفاء القانونية و ترسيخ هذا الاضطهاد عبر تهدئة تصادم الطبقات>>(5).

العالم القديم أقام حتى ذلك الحين قوى إنتاج و قوى عمل انتاجية لا نظير لها. ولقد كان ذلك عصرا بطوليا، عصر نهوض النشاط الابداعي للناس. و نحن كلما عرفنا المزيد عن ذلك العصر كلما إزدادت دهشتنا. في حقيقة الامر كيف لا نعجب إذا ما عثروا في التنقيبات على بطاريات كَلفانية**** استخدمها

---

* البتريد – **euputrides**- الاسر الارستقراطية الوارثة في اليونان القديمة - المترجم

** الديموس – **demos**- العامة الاحرار المتمتعون بحقوق المواطنة في اليونان القديمة ايضا - المترجم

*** الاليوط – **heilotes**- الفلاحون المحرومون من الحقوق و المملوكون للدولة في اسبارطة القديمة – المترجم

**** نسبة الى العالم الايطالي كَولفاني الذي اخترع مابعد بطارية تحرر التيار الكهربائي بفضل تفاعلات كيمياوية.

الصناع السومريون المهرة للتذهيب. اليس جديرا بالاعجاب ذلك المنظر الذي شهده تورهييردال ومرافقوه في جزيرة باسخي، حيث أقام اثنى عشر فرد من أهالي الجزيرة من أخلاف ذوي الآذان الطولية و الآذان القصيرة في غضون 18 يوما وبواسطة ثلاث جذوع و حبل ومعارف تقليدية ورثوها عن الاجداد، أقاموا احد التماثيل الحجرية الجبارة التي كانت قد هوت قبل حوالي ثلاثة قرون في حين ظل مهندسو القرن العشرين ردحا طويلا من الزمن يعصرون عبثا ادمغتهم بشأن التقنية التي امتلكها مبدعو هذه التماثيل.

إن الاهرامات المصرية العظيمة، ومقابر ملوك السلالة السومرية الاولى في اور، و قصر المتاهات في كنوسة في جزيرة كريت ومشيدات الاحجار العملاقة بلامادة رابطة في ألادا[**] والقباب الاوتروسكية[***] والتلال السكيفية[****] ودروب الانك، ومعابد المايا و الاستيك،[*****] والاطلال الجبارة في زمبابوي، ومدرجات بعلبك، واصنام جزيرة باسخي، وفن بنين لهي بعض آثار المجتمع القديم التي ما انفكت تثير إعجاب و افتتان أبناء القرن العشرين. ولم تكن اقل أثارة منجزات البشرية في مجال الثقافة الروحية. ففي ذلكم الزمان بالذات أُخترعت الكتابة و كتبت <<ملحمة جلجامش>> السومرية و <<الالياذة>> و

[**] ألادا - **hellados** هو الاسم القديم لليونان بالاغريقية.

[***] الاتروسكيون - شعب قديم عاش في ايطاليا.

[****] السكيفيون - قوم قدامى سبقوا الروس في استيطان روسيا و سهوب اسيا الوسطى.

[*****] الانك و المايا و الاستيك اقوام قديمة عاشت في المكسيك و امريكا الوسطى و الجنوبية.

<<الاوديسا>> اليونانيتين، <<رامايانا>> و<<مهاباهارتا>> الهنديتان، <<شوتسزين>> و <<شي-تسزين>> الصينيتان، وأشعار الفيدا الهندية، واساطير الساغ الاسكندنافية والميفولوجيا اليونانية. جميع كنوز الثقافة هذه والتي تشكل مادة فخر للجنس البشري كانت قد وضعت في فجر الحضارة، اجل في فجر حضارتنا ومن قبل أسلافنا وليس من قبل وافدين ملغزين من عوالم بعيدة ومن حضارات فضائية من خارج الارض كما يصادف ان يقرأ بين الحين و الاخر في الادبيات <<التاريخية الفضائية>> المبسطة.

النظام القديم في سومر آلَ الى نهايته نتيجة أعباء وتناقضات ذاتية تحت وقع ثورة اجتماعية وضربات الغزاة. فقوى الانتاج التي أفرزها المجتمع السومري القديم لم تستطع التطور أبعد في إطار شكل الملكية القديم السائد فيه. فقد إنحل الشكل الاخير في ملكية الزعامة الضيقة للارستقراطية التي أُضطرت في عشية لفظ الانفاس وبغية التمسك وإطالة سيادتها الطبقية التي أضحت لا تطاق، اضطرت الى اللجوء الى الاستعانة بالنظام الاستبدادي لملوك السلالة الثالثة في اور(2132-2024 ق.م.). وحين سقط هذا النظام سقط أيضا الكيان القديم في سومر و اختفى تدريجيا معه الشعب السومري و اندغم وسط الساميين الذين ملأوا البلاد.

في جنوب الرافدين غلبت طريقة انتاج جديدة سيجري الحديث عنها لاحقا. وهي ذلك النظام الذي يطلق عليه عادة نظام إمتلاك العبيد المعروف جيدا عبر اليونان و روما العصر الكلاسيكي القديم. بيد ان جنوب الرافدين تطور في ظروف تختلف عن ظروف حياة المجتمع اليوناني- الروماني. فسومر وأكد كانتا بمثابة جزيرة وسط شعوب واصلت الحياة في ظروف الكيان القديم و

استمرت تخترق بلاد الرافدين. كان في مقدمة اولئك الاقوام قبائل الاموريين الذين اجتاحوا سوية مع العيلاميين الدولة السومرية لسلالة اور الثالثة و احتلوا البلاد مؤسسين على أراضيها العديد من الدول. ففي النصف الاول من القرن الثامن عشر ق.م. وحَّد حمورابي ملك بابل البلاد من جديد في دولة حضيت لدى اليونانيين بتسمية بلاد بابل و ذلك على اسم بابل التي غدت يومها المركز السياسي لجنوب الرافدين و بلاد سومر و أكد.

الاموريون في فترة احتلال سومر و أكد كانوا شعبا انتقل توا من النظام السلالي الى الحضارة. و لكن ما ان اصبحوا سادة البلاد حتى اخذوا على عاتقهم تجريب التأثير الجسيم لحضارتها المتطورة. سلطانهم يومها لم يوقف تطور المجتمع القديم في جنوب الرافدين، و انما واصل إنعاش و إعادة احياء بعض رواسب الكيان القديم. و خير دليل على ذلك قوانين الملك البابلي حمورابي الذائعة الصيت (سنة 1970 ق.م.).

هذه القوانين صاغت تشريعيا علاقات ملكية جديدة للعصر القديم و وضعت حدا واضحا بين الاحرار والعبيد، أي بين الطبقتين الرئيسيتين للمجتمع القديم. ولكن مع ذلك فقد احتفظ فيها بتقسيم طبقة الاحرار الى فئة <<الذوات>> (mar-awilim،awilum) و<<المستمالين>> (muskenum). الذوات، أي الارستقراطيون الحائزون على كامل الحقوق المدنية كانوا أخلاف البابليين الاموريين الفاتحين. والمستمالون الموشكينوم الدهماء هم السكان المحليون الاحرار المغلوبون من قبل البابليين، ومن أخلاف الاكديين الساميين و السومريين المتحولين الى ساميين ممن كانوا يمثلون بالتمام حملة العلائق الجديدة للعصر القديم.

قوانين حمورابي ظلت تحتفظ بمفعولها على مدى التأريخ البابلي برمته. بيد ان المجتمع البابلي تغير، و تغير معه تفسير القوانين. فقد تلاشت الحقوق التي تأكد فيها الفرق بين الاويلوم- الذوات و الموشكينوم – المستمالين. كما علقت بعض رواسب العصر القديم، فيما استمرت تحيا و تتطور المعايير التي أقرت اعتماد الانظمة القديمة. و هكذا فقد جرى نوع من التقبل للقانون البابلي.

سقطت سلطة الاموريين في سنة 1595 ق.م. و حل محلهم سادة جدد غلاظ هم الكيشيون. إستمر سلطان هؤلاء لغاية سنة 1176 ق.م. واقترن أيضا بتكرار الانظمة القديمة. ولكن حتى الكيشيين لم يستطيعوا إرجاع عجلة تطور المجتمع القديم الى الوراء.

في ذلكم الزمان تغير العالم المحيط. النظام القديم غلب في أقطار غرب اسيا المجاورة، وفي مقدمتها بلدان الهلال الخصيب*. بلاد بابل لم تعد جزيرة معزولة. مجتمعها القديم اكتمل نضجه. ومنذ نهاية القرن الثامن ق.م. ظهرت فيه بواكير علامات أزمة قادمة أفصحت عن نفسها في القرنين اللاحقين. ولتلك الحقبة بالذات كرسنا كتابنا هذا.

وهكذا فإن الحديث سيدور عن أحداث و اناس لهم من القدم خمسة و عشرون قرناً. ترى من أين نستمد معرفتنا عنهم؟ المعلوم للجميع ان في اراضي العراق وعلى مدى عقود عديدة جرت و تجري تنقيبات [6]، ولكنني سأتحدث فقط عما لا يعرفه الجميع.

* هذا ما يطلق على بلاد فلسطين، فينيقيا (لبنان المعاصر)، سوريا و بلاد مابين النهرين الممتدة على شكل هلال من البحر الابيض المتوسط و لغاية الخليج.

إن زوار متحف الدولة للفنون التشكيلية المسمى باسم آ.س.بوشكين في موسكو ومتحف الارميتاج في سانت بطرسبورغ لا يتوقفون عادة بجانب واجهات العرض التي وضعت فيها لوائح صغيرة غير فاتنة مصنوعة من طين جاف او مفخور، مغطاة بكتابة مسمارية غير جلية تماما. ولكن عمر هذه اللوائح يتراوح مابين ألفين الى خمسة ألاف سنة. وحين بدأت منذاواسط القرن التاسع عشر تنقيبات أطلال مدن سومر، أكد، آشور و بلاد بابل عثروا ومازالوا يعثرون على اكداس وفيرة من هذه اللوائح. حتى ان العدد العام لها المحفوظ في العديد من متاحف و مجامع العالم بلغ اليوم نصف مليون لوحة.

تتضمن اللوائح نصوصا أدبية، دينية، علمية و كتابات ملوك، ولكن الكمية الغالبة منها عبارة عن وثائق اعمال تجارية- كمبيالات، إيصالات، فواتير، عقود إيجار، سندات شراء، قوائم محاسبات، محاضر محاكم وقرارات، تصاريح و إفادات شهود و رسائل ذات طابع شخصي أو عملي. كل واحدة من تلك الوثائق كتبت بلغة قانونية جافة وبترتيب قياسي. ولو أمعنا النظر في الواحدة منها لا لفيناها، والحق يقال، قادرة على ان تلقي بظلال سأم ثقيل حتى على الاختصاصي. ولكن ما ان يوصل المرء اواصر الصلة بين مختلف الوثائق ويتعرف على الشخوص الواردة فيها حتى تتغير الصورة بشكل حاد. الوثائق تبدأ تنطق بصوت عال. ويتمثل أُناس بابل الشمطاء أمامنا احياءً بافراحهم و اتراحهم، بنجاحاتهم و إخفاقاتهم، بافعالهم و هواجسهم.

على هذه الشاكلة ندرك نحن عصر الهرج البابلي بكلمات البابليين الذي كتبوا دون ان يدانيهم شك بانهم يتحدثون بانفسهم الى أخلاف بعيدين بشأن الكثير من الامور، و ربما عما فضلوا السكوت عنه. ولكن الناس لم ينسوا أبدا

بابل الهرج البابلي. لقد حفظوها في ذاكرتهم طويلا لغاية ما عُثر على الرقم الطينية وتعلموا من جديد قراءة الكتابة المسمارية. لقد قرأت أجيال عديدة عن بابل وعجائبها في الكتاب المقدس وكذلك في مؤلفات الكتاب الإغريق والرومان أمثال هيرودوت، كسينوفونت، ديودرو، أرّيان، سترابون وغيرهم. تلك الأحاديث ترقى الى اناس رأوا بابل بامهات أعينهم وعاشروا البابليين. إنها شهادات شهود عيان كان كل منهم استوعب ما رأى وما جرب وسمع على طريقته الخاصة تبعا لطبيعته و مزاجه و موقفه إزاء بابل و البابليين.

استعنت عند وضع الكتاب بجميع تلك المصادر. وبطبيعة الحال فإن صفحاتها لا توفر إمكانية للإحاطة حتى ولو تقريبا بكل المادة الضخمة عن بابل عصر البلبلة. حتى أنا لم أضع لنفسي مثل هذا الهدف. مهمتي تتلخص في ان اقدم دونما تفريط في النوعية العلمية للعمل تحقيقا مفهوما من قبل الجميع عن التأريخ السياسي، الاجتماعي- الاقتصادي والثقافي للمجتمع البابلي على مدى مائتي عام و نيف- من سنة 689 الى 482 ق.م. وهي تلك الحقبة التي يطلق عليها علميا الحقبة البابلية الجديدة، أو بابل الجديدة، و ان أروي كيف عاش وبم شُغل اناس ذلكم الزمان الذين استوطنوا بابل. كم وُفقت في مهمتي؟ هذا ما سيحكم عليه القراء.

وفي الختام أجد لزاما علي ان اتوجه بالشكر الجزيل الى السيدين تيموفي إسايفيج شارغورودسكي ودميتري غريغوريفيج ريدر اللذين أبديا لي عونا كبيرا عند تأليف هذا الكتاب.

الفصل الاول

ولادة بابل الجديدة

أساگيلا، قصر الالهة، معابدها المقدسة،
بابل المميزة، سورها أمگور ــ أنليل، سدها،
نيميت ــ أنليل أنا أمرتُ باعادة بنائها من
جديد، من أسسها لغاية تروسها، جعلتها أكثر،
أشمخ و أروع مما في السابق.
من لوح إهداء أسرحدون
ملك أشور

في شتاء عام 689 ــ 688 ق.م. هز خبر مريع قاطبة الاقوام و الامـــصار من ضفاف البحر المتوسط حتى وادي ألإند، من بـــراري الـــسودان المداريـــة ورمال الصحراء حتى السهوب المحاذية للبحر الاسود وصـــعودا الـــى جبـــال القفقاس الشمطاء هزها خبر مفاده ان بابل محور العالم ما عادت تحيا!

وكان الشرق القديم على مدى تأريخه الموغل في القدم و الممتـــد بـــضعة الاف من السنين قد شهد مرات لا تعد ولاتحصى كيف انبثقت وإزدهـــرت ثـــم

زالت دونما أثر ليس فقط حواضر بل أقوام وبلدان برمتها. تـــصرمت قـــرون، تبدل ملوك وغزاة ولكن احدا لم يجرأ على رفع يده على بابل المقدسة ومعبدها أساكَيلا. وها هي ذا قد أصبحت أثرا بعد عين، أزيلت من على وجـــه الارض. فما الذي جرى ؟ أي نوْآن مرعب عصف بجنائن الفردوس الغناء فـــي أغنـــى وديان العالم ــ وادي دجلة و الفرات ؟ إنها لتساؤلات ملحفة! و للاجابة عليها لابد لنا من تعريف القاريء بما سبق زوال بابل من تأريخ غرب آسيا.

كان عمر الحضارة في الشرق الاوسط حتى ذلك الحين قد بلغ 2500عـــام. خلال تلك الاماد أوجد سكان مصر والهلال الخصيب ثروة طائلة وثقافـــة هـــي الاكثر تقدماً وألقاً في العالم، ولكنهم لم يجنـــوا الـــسعادة ولا الطمأنينـــة. كـــل خيرات الحضارة آلت الى القلة القليلة، وأما نـــصيب الـــشعب العامـــل فكـــان العبودية والكدح الشاق القانط والفقر. عدم المـــساواة الماديـــة و النزاعـــات الاجتماعية الحادة قوضت قوى المجتمعات المتحضرة. وحـــين أزف النـــصف الثاني من القرن الثامن ق.م. وجدت جميع الدول العظمى في الشرق الاوســـط نفسها في وضع تردي عميق.

دولة فراعنة مصر الشامخة لم يعد لها وجود. عن عظمتها التليدة صـــارت تتحدث مجرد الاهرامات ومجموعتا المعابد الفخمة في الكرنك والاقـــصر قـــرب الفيوم. اراضي مصر تجزأت الى عدة إمارات حكمها أمراء صـــغار اعتمـــدوا على المحاربين الليبيين وراحوا مع الكهنة يـــستغلون الـــشعب المـــستعبد. و سرعان ما أحتلت مصر من قبل النوبيين سنة 716 ق.م..

دويلات سوريا، فينيقيا وفلسطين مرت هي الاخرى باوقات عـــصيبة. فقـــد واصلت الاحتراب فيما بينها. وداخل كل واحدة منها جرى صراع بين الفقـــراء

والاغنياء، العبيد و السادة. بشأن ما آلت اليه في حينـــه أحـــدى تلـــك الـــدول ومثلنا هنا يهوذا قال النبي أيوشع: << الرأس كله متقرح و القلب كله وهـــن. من باطن القدم الى اليافوخ ليس ثمة موضع سليم، قرح، بقع، جروح متقيحـــة متعفنة قذرة بلا شداد وبلا بلسم شاف. أرضكم خراب، مدنكم التهمتها النيران، حقولكم يأكلها الغير. لقد أقفر كل شيئ كما بعد إجتياح من قبل غرباء >>[1].

ودولة أشور الجبارة التي كانت قبل قرن تبعث الهول في غرب أسيا أمست في أواسط القرن الثامن ق.م. في حالة إنحطـــاط. قـــوي الجـــيش الاشـــوري استنفذت جراء الاملاق الشامل للمواطنين - ملاكي الارض الذين وقعت علـــى عواتقهم اعباء الخدمة العسكرية. طبقة الاعيان الاشوريين لم تدخر وسعاً فـــي جني الثروات الطائلة المسروقة من الاقطار المجاورة، ومع ذلك فقد تـــضاءلت القدرة الحربية، وفقدت أشور مكتسباتها، فيما راح ملوك اورارتـــو يـــضغطون عليها من الشمال.

في سنة 745 حصل في أشور إنقلاب بلاطي واستولى على العرش الملـــك تيكَلاتبالاسر الثالث. وباعتماده على الفئات الديمقراطية من المجتمع الاشـــوري أجرى العديد من الاصلاحات المهمة التي كان لها الاثر الكبيـــر علـــى مـــصائر الشرق الاوسط بما في ذلك بلاد بابل.

لقد فتح تيكَلاتبالاسر الثالث مجالا في الجـــيش لأبنـــاء الطبقـــة الاشـــورية الفقيرة التي كانت سابقا تبعد عن الخدمة العسكرية بسبب عدم أهلية اقتـــدارها المادي. عندها صار الجند يسلحون ويعالون على حساب الدولة. بفـــضل ذلـــك تنامى في دولة آشور وبشكل حاد دور سياسي للفئات الديمقراطيـــة، وصـــار الجيش تجسيداً له. منذ ذلك الحين لم يعد الجيش الاشـــوري ميليـــشيا مدنيـــة

وتحول الى جيش دائمي محترف. ولم يعرف الجيش الاشوري الجديد على مدى قرن كامل نظيراً له في قدراته القتالية. معتمدين على الجيش أخضع تيكَلاتبالاسر الثالث (745 ــ 727 ق.م.) وخليفته شلمنصر الخامس (727 ــ 722 ق.م.) و سرجون الثاني (722-705 ق.م.) أخضعوا خلال فترة قصيرة سوريا، فينيقيا، فلسطين، المقاطعات الشرقية من آسيا الصغرى، المناطق الغربية من ايران وكذلك بلاد بابل.

وليس بأقل أهمية جاء تغيير العلاقات إزاء البلدان المفتوحة. فقد اقتصر الاشوريون وكسواهم من الفاتحين سابقاً على السلب و فرض الاتاوات على الشعوب الذاعنة وسحق العاصية منها، ولكنهم كقاعدة لم يحرموها من الحكم الذاتي. تيكَلاتبالاسر الثالث شرع ولاول مرة بتحويل البلدان المحتلة الى أقاليم مضمومة الى كيان الامبراطورية الاشورية. وهكذا بات الاشوريون يفرضون على الشعوب المغلوبة من قبلهم حكمهم وإدارتهم. وكيما يحطموا مرة واحدة والى الابد قدراتها على المقاومة لجأوا الى أتباع ما يسمى بسياسة << ناساخو >>[*].

وهكذا ففي سنة 722 ق.م. مثلا وبعد إحتلال السامرة عاصمة اسرائيل ساق الملك الاشوري سرجون الثاني بني اسرائيل الى الاسر وأسكنهم في مختلف مناطق ميسوبوتاميا الشمالية وعلى الحدود مع ميديا. وبدلا من الاسرائيليين نقل الى السامرة أسرى بابليين وسوريين من حماة. وهكذا فالشعب المغلوب يكون قد أنقطع فعلياً عن تربته الاصلية من الجذور، و

---

[*] باللغة الاكدية (الاشورية ــ البابلية) يعني فعل ***nasahu*** إقتلع من الجذر، إجتثَّ.

الاسرى المنتزعون منها شأنهم شأن المساقين اليها أمسوا في أطواق منقطعة عن شعوبها الاصلية في غرب أسيا. بمحو الفوارق الاثنية هم حولــوا جميــع سكان إمبراطوريتهم الى كتلة فاقدة الملامح والصفات ولكن مربوطــة بطــوق حديد النير الاشوري. أما الاشوريون أنفسهم الذين لم يتميــزوا يومــا بعديــد عددهم فقد ذابوا وسط الاقوام المغلوبة التي كانــت تــتكلم فــي المقــام الاول بلهجات أرامية. وبالنتيجة فقد حصلت عملية تثارم، اي تحــول ســكان غــرب أسيا الى الارامية.[2]

في بلاد بابل المجاورة ساد وضع لايقل تعقيداً. فالقلق عم الــبلاد. وبينمــا كان اعيان بابل، بارسيبا، سيَّبار، نيبّور، اوروك (الوركاء) أور وغيرها مــن المدن يرفلون بالرفاه كان الشعب العامــل يــأن تحــت نيــر الفقــر. بايــدي الارستقراطية تركزت العقارات المترامية الاطراف وثروات المعابد. الكثير مــن الارستقراطيين كانوا ملاك ضياع نشأت على حساب افلاس الملاكين الصغار و المتوسطين للارض. كما ان الارستقراطية أعفت نفسها من جميع الواجبــات و الفروض إزاء الدولة، فيما استأثرت لنفسها بكل حقوق و أمتيازات المواطنة.

أستحوذت الارستقراطية على السيادة الاقتصادية و السياسية في المجتمــع، أفقرت المواطنين البسطاء، وأوصلتهم الى حالة يرثى لها وحطــت مــن قــدر الملوك لغاية ماجعلت دورهم أشبه بدور الدمى الفاقدة للسلطة الفعليــة. كمــا استنزفت الارستقراطية في الوقت ذاته المملكة البابلية التي لم يعد لها وجــود من الناحية الفعلية. البلاد أضحت في وضع تشرذم سياســي وفوضــى. بــين المدن البابلية جرت صدامات متواصلة. بعض طغــم الارســتقراطيين ناصــبت

البعض الاخر العداء. واخيرا أمست بلاد بابل بلاحام أمام جيرانها الكواسر – أشور، عيلام و قبائل الكلدان.

الكلدان قوم أصلهم سامي نزحوا من شبه الجزيرة العربية. وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد احتلوا جزءاً لايستهان به من بلاد بابل مؤسسين العديد من الامارات القبلية أكبرها بيت – ياكين (القطر البحري)، بيت داقُّوري، بيت عموقاني، كَامبولو، بوقُّودو. المدن البابلية بدت وسط محيط كلداني، و المستوطنون الكلدان تغلغلوا الى أرضيها. الارستقراطية البابلية إستغلت القوة الحربية للكلدان، وفي الوقت ذاته وبخلاف رغبتها شجعتهم للاحتلالات القادمة. ومع مرور الوقت تبابل الكلدان (صاروا بابليين) بشكل شديد. ولمرات عدة احتل الامراء الكلدان بابل وأسبغوا على أنفسهم لقب ملوك بابل. أما الارستقراطية البابلية فقد تخلصت منهم بتأليبها الواحد منهم ضد الاخر أو بالاستعانة بآشور وعيلام.

بالضبط أثناء تنصيب تيكَلاتبالاسر الثالث ملكا على آشور طلب منه البابليون العون ضد الكلدان الذين احتلوا مدينتهم، فحرر تيكَلاتبالاسر الثالث بابل في سنة 729ق.م.، وتحت أسم بولو أرتقى هو نفسه العرش الملكي. ثم انضوت بابل على أساس الاتحاد الذاتي في عداد الامبراطورية الاشورية.

هذا الحدث بدا لكلتا الدولتين حتمياً. فبالنسبة للاشوريين بلاد بابل وبخلاف بقية البلدان المحتلة لم تُعد بلدا اجنبيا. فالبابليون و الاشوريون كانو شعبين شقيقين مرتبطين إرتباطاً وثيقاً بوحدة الاصل، المصائر التأريخية، الدين، الثقافة و العادات. كانا يتكلمان بلهجتين متقاربتين للغة أكدية واحدة ويكتبان بخط مسماري واحد. بابل كانت مدينة مقدسة، وقد استأثرت لديهم بسمعة

عالية جداً. الارستقراطية البابلية أصبحت سندا وحليفاً للارستقراطية الاشورية الاكثر ضعفاً، وذلك في صراعها من أجل الابقاء على إمتيازاتها إزاء المطـامع الاستبدادية للملوك الاشوريين. ولقد تلخصت تلك الامتيازات في التنـصل مـن فروض الدولة بما في ذلك من الخدمة العسكرية والضرائب وكذلك فـي حـق الحكم الذاتي الذي تمتعت به المدن القديمة في بلاد بابل وأشور.

في أشور نشأ فريقان متنافسان. وكانا عبارة عن تجمعين تشكلاعفويا، وقد إتسما بكونيهما غير واضحين تماماً وغير مستقرين، ولكن جمعتهمـا وحـدة المصالح. عمليا استقطبا تسمية نسبية، إذ اطلق عليهما الفريـق الاشـوري و الفريق البابلي. الفريق الاشوري ضم الفئات الديمقراطية في المجتمع، وكـان عماده الجيش.وقد أيد هذا الفريق سياسة الفتوحات وساند السلطة الملكية فـي نزوعها نحو الدكتاتورية الاستبدادية. أما الفريق البابلي فتمثل بتجمع سياسـي للارستقراطية الاشورية المعتمدة على بابل. الفريق الاخير لم يعارض سياسـة الفتوحات وسلب الشعوب المغلوبة، ولكنه لم يشأ التنازل عن امتيازاته لصالح هذا الهدف. ولهذا السبب فإنه ناضل ضد اقامة دكتاتورية ملكية استبدادية.

الصدام المفـتـوح بـيـن الفـريـقين بدأ إبان الملك الاشوري شلمنصر الخامس (727 ــ 722 ق.م.) ابن تيكَلاتبالاسر الثالث. شلمنصر الثالث الذي حمل بصفته ملك بابل أيضاً أسم أولولاي تطاول على امتيازات الارسـتقراطية ودفع حياته ثمنا لذلك. اذ قُتل من قبل متآمرين. فـاعتلى العـرش الاشـوري سرجون الثاني (722 ــ 705 ق.م.). عندها انفـصلت بابـل عـن أشـور وانخرطت في إتحاد مع الكلدانيين وعيلام. وإرتقى العرش البابلي مـردوخ ــ ابلو- ايِّدين الثاني (722 ــ 710 ثم في 703 ــ 702 ق.م.) أمير بيـت ــ

ياكين الكلداني. في سنة 710ق.م. وحسب إستطاع سرجون الثاني إقصائه عن بابل كما استطاع ان يكسب الى جانبه ود الارستقراطية و ذلك باعادة وتوسيع إمتيازاتها.

الملك الاشوري سنحاريب (705 ــ 680ق.م.) ابن سرجون الثاني قــام بمحاولة جديدة للحد من الدكتاتورية العسكرية الاستبدادية. وبلغ الصراع بــين الفريقين الاشوري و البابلي إبان حكمه ذروة التوتر. ثم أصــبحت بابــل مــن جديد الخصم الرئيس للملك الاشوري. فقد انتفضت ثانية فــي ســنة 703ق.م. واستدعت مردوخ ــ ابلو ــ ايدِّين الثاني لارتقاء عرشه. وعلى مدى 14 سنة خاض سنحاريب بنجاح متفاوت حرباً ضروساً مع بابل ومــسانديها الكلــدان و عيلام. واخيراً وفي كانون الاول سنة 689ق.م. انقضت العــساكر الاشــورية على المدينة العاصية و استولت عليها.

أصدر سنحاريب وقد أعماه الغضب أمراً بمحق بابل و البــابليين، فأُحرقــت المدينة ودمرت. واغلق مجرى النهر بانقاض الابنية حتى تدفق المــاء عبــر أطلال المدينة. ولُعن الموقع الذي قامت عليه بابل سبعين عام. قتل الكثير مــن البابليين وفي مقدمتهم الارستقراط. وولى البعض هربا الى البلدان المجــاورة، فيما سيق الباقون الى الاسر وبيعوا عبيداً. ثم نقل صنم بيلاّ ــ مــردوخ الــه بابل الكبير غنيمة الى مدينة أشور. ولم تعد بابل تحيا.

هذا هو الخبر الذي أصاب كالرعد قاطبة الشرق الاوسط الذي أّشهرت عليه المطرقة الاشورية وهو يتابع يحدوه الامل صراع بابل مــع ســنحاريب. بعــد هلاك بابل صار غيهب السيطرة الاشورية أكثــر حلكــة ولايطــاق. وبــدا ان سنحاريب قد حقق هدفه. فعند قدمي الملك الاشوري ترامت البلدان والــشعوب

بعد ان تعفرت باقدام جحافله. لم يجرأ أحد على مخالفة إرادة الملك. لكنه أكتشف بنفسه فجأة انه في خواء، في اجواء مقت محتدم، وادراك انه ليس ثمة من يعتمد عليه وليس من هو بحاجة الى دكتاتوريته، واخيراً لايوجد من يؤازره.

إهتمت باقامة الدكتاتورية الاستبدادية لملوك أشور قوتان اجتماعيتان هما الفئات الديمقراطية من المواطنين الاشوريين و الطبقات الثرية في الاقاليم. هذه وتلك رأتا في السلطة الملكية القوية اداة لاقامة << السلم >> و << النظام >> اللازمين للقضاء على الفوضى و الخلل وتأمين حدود العالم المتحضر من هجمات البرابرة. لقد كان لمارش نصر الجحافل الاشورية وقع فقط في بلدان الحضارة القديمة التي مزقتها التناقضات الاجتماعية الحادة. وبين الطبقات المهيمنة هناك غالباً ما وجدت اوساط مستعدة للتعاون مع المحتلين. ولكن امكانية مثل ذلك التعاون كانت تتوقف بالتمام والكمال على الديمقراطية الاشورية، على قوام الجيش الاشوري وحالته المعنوية.

المحدودية النسبية لعدد نفوس الشعب الاشوري استلزمت تجنيد الاجانب في الجيش. وكان الجنود المساقون عنوة من بين سكان الاقليم و العبيد الاسرى ممن قاتل بالامس ضد أشور يسعون الى امر واحد الاوهو السلب. أما مصير بلاد أشور، مشاكلها السياسية و الاقتصادية فكانت لاتعني الجيش الاشوري الا من وجهة النظر هذه. بالتحصيل الحاصل تحول الجيش الى خليط غير متجانس فقد تدريجياً أية رابطة بالشعب الاشوري. كما ان الديمقراطية الاشورية فسدت وانحلت في الطغمة العسكرية التي حرمت بدورها دكتاتورية الملوك الاشوريين من فرصة الاعتماد على الفئات الموسرة من سكان الاقليم.

بالتنكيل القاسي بـــادنى محاولـــة للمقاومـــة و التبـــرم أقـــام الاشـــوريون <<السلم>> داخلياً. ولكن سلطانهم لم يحمل الى سكان الاقاليم تلـــك المنـــافع التي من شأنها جعلهم يرتضون التفريط بالاستقلالية.

لقد كتب الامبراطور الروماني تيبيري بعد ذلك بسبعة قرون الـــى وكـــلاء الاقاليم ممن دافع عن زيادة الضرائب يقول << إن الراعي الجيد يجز صـــوف الخراف ولكنه لايسلخ جلودها >>. هذا اذا كان الاشوريون رعاة جيدين. انهم لم يحلقوا الشعوب الخاضعة وانما سلخوا جلودها بالمعنى الحرفي للكلمة. هكذا مثلا بدت << تهدئة >> سنحاريب للشعب في أحـــرون فـــي ســـنة 701 ق.م. وكما يصفها هو بنفسه.

ففي احرون اطاح الشعب بحكم الملك بادي الموالي للاشـــوريين وســـلموه مكبلا بالاصفاد الى الملك حزيقيا الذي ترأس انتفاضة معادية للاشـــوريين فـــي فلسطين. وفي معركة جرت عند الطاق سحق سنحاريب المنتفضين و العـــساكر النوبية ــ المصرية التي جاءت لمساعدتهم. ثم دخل الاشوريون مدينة أحرون بدون قتال. وبعدها يروي سنحاريب بنفسه : << وصـــلت أحـــرون ومـــضيت تقتيلاً بالعاملين عليها و المدراء، ثم علقت جثثهم على أعمدة حـــول المدينـــة. سكان المدينة من مرتكبي الجرم و الاثم أدخلتهم في عداد الغنيمة. أما البقيـــة ممن لم يرتكب جناية أو جرم وكذلك الذين لاذنب لهم فقد أمرت بالصفح عنهم. ملكهم بادي أنقذته من اورشليم، نصبته على عرش الحكم لديهم وفرضت عليه الاتاوة لسلطاني >>. هنا لم تنته << النعم >> الاشورية لاحرون فقـــد وهـــب سنحاريب للمخلصين من اهالي احرون جزءا من الاراضي اليهودية التي كانت

جحافله قد نهبتها بالكامل وساقت سكانها بلا إستثناء الى الاسر. لقاء ذلك فرضت على احرون أتاوة أضافية (4).

وعلى هذا النحو فلقاء اخلاصهم لبلاد أشور بات سكان أحرون ليس فقط منهوبين محرومين من جزء كبير من أهاليهم المستغلين وانما محكومين أيضاً باتاوة تفوق بكثير ما تعين عليهم قبل << التهدئة >>. يصعب القول انهم فرحوا بمثل هذا <<السلم>> الاشوري.

ولكن ما كان بمقدور سنحاريب أن يهبهم شيئا غير ذلك، وليس ثمة ما يجعله يفكر جدياً باتباع سياسة قادرة على إثارة إهتمام الفئات العلَيِّة الموسرة في البلدان المغلوبة وهو يمتلك ذلك الجيش المتحلل أدبياً و الذي توجب الانفاق عليه واعالته على حساب الحرب.

لقد أدرك سنحاريب أن الديمقراطية الاشورية لم يعد لها وجود، وان الطغمة العسكرية المحيطة بالملك غير معنية بمطامحه السياسية ولايجوز الاعتماد عليها كسند. كما كان من العبث توقع مؤازرة من الاقاليم خاصة بعد التنكيل القاسي ببابل.

أما ما يتصل بالارستقراطية الاشورية فإنها كانت دوما على خصام مع سياسة سنحاريب الاستبدادية ورأت في هلاك بابل تأكيدا لأسوأ مخاوفها. أجل لقد سحق سنحاريب بابل، ولكن هلاكها كسره بالذات. لذا فانه في الاعوام الاخيرة من حياته غيَّر بشكل حاد سياسته وراح يبحث عن مخرج من الوضع المتفاقم. ووجد الوضع الداخلي المتوتر في بلاد أشور تعبيره في الصراع من

أجل وراثة العرش داخل الاسرة الملكية نفسها. وبعد تردد طويل أضطر سنحاريب الى سلوك مسلك التنازل إزاء الفريق البابلي وفي سنة 682 أو 681 ق.م. عين وريثا للعرش احد أبنائه الصغار أسرحدُّون. وقد لعبت دوراً لايستهان به في ذلك الملكة زاكوتو الزوجة المحببة لدى سنحاريب و أم أسرحدُّون *.

ولقد أقترن تعيين اسرحدون وريثا للعرش بتنازل هام جدا ومبدئي من جانب سنحاريب للفريق البابلي. ويعرض أسرحدُّون ذلك بمدونته على النحو التالي << مع كوني أصغر سنا من أخوتي الكبار فإن أبي الوالد بايعاز من آلهة أشور سين، شمش، بيل، بنو و الالهة عشتار الاربيلية وفي أجتماع لاخوتي رفع رأسي قائلا: << هذا هو وريثي !>>. لقد استفسر بالمعاينة قرابين الالهين شمش و أدادا و قد أجابه اولئك <<بنعم>> حازمة قائلين : <<انه خليفتك ! >> فاحترم قولهم المأثور الصارم وجمع قاطبة شعب بلاد أشور صغاراً وكباراً، أخوتي وأسرة بيت أبي وأمرهم أن يقسموا أمام أشور، سيب، شمش، نبو، مردوخ آلهة اشور، من سكنة السماء و الارض قسماً مهيباً بصون و راثتي للعرش>>[5].

على هذه الشاكله خالف سنحاريب مبدأ وراثة عرش السلطة الملكية، و الانكى من ذلك ان قراره هذا صودق عليه من قبل مجلس الشعب فجاء ذلك يعني رفضا قاطعاً من قبل سنحاريب لسياسة إقامة سلطة ملكية غير محدودة.

---

* كانت سورية المولد حيث اسميت زكية (أي الطاهرة باللغة الارامية) تم تحولت بالترجمة الاشورية الى زاكوتو.

بهذا الثمن أراد مساندة الفريق البابلي. بيد أن هذه الخطوة بدت لـــه محتومـــة بامر مقدر. فإبنا سنحاريب الكبيران أدار ملك (أدارميلخ) وشـــرّو ــ أوســـور (شاريسير) كانا بطبيعة الحال ممتعضين للغاية مـــن حرمانهمـــا الحـــق فـــي العرش. حاولا تحريض والدهما على العدول عن قراره، الا أن سنحاريب مـــع تردده لم يفعل شيئاً. فاستغل عندئذٍ الاخوان أدارملك وشرّو ــ اوســـور غيـــاب اسرحدون وقتلا في العاشر من كانون الثاني عام 680ق.م. ســـنحاريب أثنـــاء زيارته معبد نيونورتا في مدينة كالح(6).

أثار مقتل الملك في أشور الحيرة والانزعاج. ولم يفلح إبنـــا القتيـــل فـــي الاستيلاء على السلطة. ففي نينوى لم يساندهما أحد. أما اسرحدون فأنه بدون اضاعة للوقت سارع على رأس حملة بمن كان بامرته من العـــساكر. فهـــرب اخواه من نينوى، وحاولا إستمالة العساكر المرابطة على الحدود الـــشمالية ــ الغربية للامبراطورية لصالحهما. بيد أن هؤلاء وما ان اقترب اسرحدون حتـــى انتقلوا ودونما مقاومة الى صفه. وأما الاخوان فقـــد لاذا بـــالفرار الـــى بـــلاد اورارتو.

وفي نهاية شهر شباط 680 ق.م. عاد آســـرحدون الـــى نينـــوى وارتقـــى العرش الملكي. وقد ساعدت في نجاحه الارستقراطية الاشورية، فهي وبكـــل ما اوتيت من وسائل شنت حملة دعائية بين اوساط السكان لصالحه. الفريـــق البابلي مذ كان سنحاريب حيا يعقد الامل على أسرحدون في اعادة إعمار بابل. بهذا الصدد نجد من الطريف ذكر المشهد التالي. فقد كـــان أســـرحدون وهـــو مازال امير قد إستعان وامه زاكوتو بالكاهن بيل ــ اوشيزيب. فتنبأ الاخير بان اسرحدون سيتولى الملك في بابل ويبني معبد بابل الرئيسي أســـاكَيلا. الكـــاهن

فضلا عن ذلك لم يتحوط في تكهن نهاية موفقة لحياة سنحاريب. وحين قتل الاخير طرد أسرحدون بيل ــ اوشيزيب كأفّاك جاهل[7].

وبالفعل وبمجرد ان أصبح أسرحدون ملكا سارع في الحال بأعادة إعمار بابل. أية أنعطافة سياسية اقتضى تسويغها باعين الرأي العام الاشوري دونما تسويد لذكرى سنحاريب وبلا إثارة الفريق الاشوري بالضد. لاشك ان المهمة كانت صعبة. إذ لم يمض على التدمير سوى عشرسنوات. ولكن أسرحدون ومستشاروه إستطاعوا أن يخرجوا من الوضع الصعب بمهارة.

فقد أُطلقت رواية جديدة بشأن اسباب خراب بابل. وبدى الذنب ذنب البابليين الذين عم بينهم الكذب وتضييق الاقوياء على الضعفاء و الرشوة و السرقة وعدم احترام الابناء للاباء وعقوق العبيد للاسياد وغيرها من الاثام المميتة. وطلبا للعون ضد الاشوريين تجرأ البابليون على إهداء كنوز معبد أساكَيلا للعيلاميين مما حدى بمردوخ الغاضب رب أرباب بابل أن يطلق نهرآراختا على المدينة الاثمة وينكل بالبابليين. ولم تذكر أية كلمة عن مشاركة سنحاريب و العساكر الاشورية في تخريب بابل. أبدل الالهة برئاسة مردوخ الغضب بالعطف. وبالعديد من علائم التفاؤل بالخير المحوا الى انهم يرغبون إعادة اعمار بابل ومعبدها أساكَيلا. وهكذا نالت بابل الصفح وليس رد الاعتبار. ويبدوا انه تعين على الملك استمالة جميع قوى الالهة وتعزيز جبروتها وأنصارها في الارض للتأثير على الرأي العام وكسر مقاومة الفريق الاشوري لاعادة بناء بابل المغضوب عليها.

ولكن بقيت ثمة عقبة ليست هينة: فالموقع الذي كانت بابل مقامة عليه قد لُعن لعنة مريعة لسبعين عام ! وهنا لجأوا الى لعبة ذكية للغاية. فالرقم **70**

يبدو في الكتابة المسمارية بشكل أنه اذا ما ابدلت مواقع العلامـــات فسيحـــصل رقم 11، وان هذه التركيبة الرقمية أتاحت للاله مردوخ أن يسبغ الرأفة علــى بابل، وعلى هذا النحو قلص فترة اللعنة الجاثمة عليها الى 11ســنة. وبهـــذه المناسبة أعلن عن اعادة إعمار بابل من قبل أسرحدون في ســنة 678 ق.م. مع ان الاعمال الانشائية كانت قد بدأت منذ سنة 680ق.م.[9] .

لاعادة إعمار بابل تم توجيه خيرة الاسطوات الملكيين. وكقوة عمـــل حُـــشِّد سكان بابل وسيق العبيد من ارجاء الامبراطورية كافة. سحبوا مياه الفرات الى المجرى السابق، قطَّعوا الاشجار و الاحراش والقصب الذي نمـــى فـــي موقـــع المدينة. و شارك أسرحدون بنفسه في وضع اسس المدينة ومعبدها أســـاكَيلا. بدأوا في المقدمة ببناء اسوار المدينة ومعبد آساكَيلا. اعيد بناء بابل على وفق المخطط القديم. ولم يبخل أسرحدون لا بجذوع شجر الارز الفينيقي ولابالـــذهب والفضة والنحاس. أفضل النحاتين و الصاغة صنعوا الاصنام و اللوازم لمعبـــد أسايكَلا. واستمرت حملة اعادة الاعمار أكثر من عشرين عام.

ولكن الحديث بشأن اعادة اعمار بابل لم يجر ببساطة. فأسرحدون لم يعـــد بناء مدينة اشورية وانما بابل البابلية، اي انه اعاد بناء المواطنـــة البابليـــة. واعاد تجميع من سَلِمَ من الذبح، وحرر من كُبِّل من البابليين بنيـــر العبوديـــة، اعاد إليهم ممتلكاتهم السابقة، وأباح لهم السكن في بابل و بناء البيوت و حفر الاقنية وغرس الاشجار. لقد حصل البابليون من أسرحدون على شهادة بالعفو واعادة جميع حقوقهم وامتيازاتهم السابقة [10].

اعادة إحياء المواطنة البابلية إقترنت باعادة ملكية الارض فيهـــا. وكانـــت هذه المهمة واحدة من أعقد المهام. ففي سنة 689ق.م. تم مصادرة اراضـــي

البابليين ومنحت للجيران الكلدان من إمارة بيت دقوري. وفي سنة 678 ق.م. وبعد ألاعلان رسمياً عن أعادة بناء بابل أعاد أسرحدُّون للبـــابليين اراضـــيهم السابقة، مما حدى بكلدان إمارة بيت دقوري الى الانطلاق بانتفاضـــة ســـرعان ماقمعت بلارحمة وانتهت بحياة الامير الدقُّوري المأسور بقطـــع رأســـه علـــى خشبة الاعدام [11].

بيد ان انتزاع الاراضي البابلية من الكلدان لم يكن سوى جزء من مـــشكلة بسيطة. الاصعب تمثل بتقسيم الارض بين البابليين. ففي سنة 689 ق.م. أُعدم الكثير وفي مقدمتهم ملاك الاراضي مما جعل اراضيهم السابقة فاقدة للملكيـــة. وبين من سَلِمَ وعاد لم يكن لديه وثائق تثبت ملكيته السابقة للاراضـــي. بهـــذا الصدد ليس ثمة حديث عن ترميم كامل للعلاقات العقارية التـــي كانـــت قائمـــة لغاية سنة 689ق.م. اسرحدون وموظفوه اعادوا بطيبة خاطر ضـــياع اولئـــك الملاك الذين إستطاعوا إثبات حقوقهم. وبهذه الطريقة تم إحيـــاء العديـــد مـــن الضياع الكبيرة العائدة للارستقراطيين السالمين. أما الارضـــي المتبقيـــة فقـــد اقتضى الامر تقسيمها من جديد الى قطع. وهنا ظل جزء من الاراضي بايـــدي الكلدان لان عدد نفوس البابليين تقلص لحد كبير. وهؤلاء الكلدان حصلوا على حقوق المواطنة و أُلحقوا في عداد البابليين. ومع ان مسألة الارض نوقـــشت وعولجت في سنة 678. في المجلس الشعبي للبابليين الا ان تسويتها النهائية امتدت لعدة سنوات وترافقت بعدد لايحصى من الدعاوى.

مثالا على ذلك نسوق قصة إسترجاع ضيعة عداد ــ إيبين حيث كان والـــد الاخير موشيزيب ــ مردوخ يمتلك ضيعتي بيت ــ حراهو، وبيت ــ نوريا وقد آلتا في سنة 689ق.م. الى كلدان دقُّوريين. بيد ان موشيزيب ــ مردوخ سَـــلِمَ

واعلن في سنة 678ق.م. عن حقوقه في الضيعتين مع كونه لم يستطع تقـديم الوثائق المناسبة. فوعده أسرحدون شخصياً بتحري دعاويه وتلبيتهـا اذا مـا ثبتت.

طال التحري ودام مدة 19سنة كاملة، توفي خلالها كل مـن موشـيزيب ــ مردوخ والملك اسرحدون. وفي سنة 659 ق.م. حصل عـداد ــ إيبـين ابـن موشيزيب ــ مردوخ بالتالي من الملك شمش ــ شوم ــ أوكين على ضـيعتي والده. وقد جرت الدعوى على نحو التالي. الضيعتان المتنازع عليهمـا كانتـا تقعان في أرضي إمارة بيت ــ دقُّوري. و حيث ان عداد ــ ايبني كوالـده لـم تكن بحوزته أية وثائق تثبت حقه في ملكية الارض فإن الملك شمش ــ شـوم ــ اوكين طلب من الكلدان وثائق تثبت حقوقهم في الملكية. وحيث لم يـستطع الكلدانيون تقديمها، اضطر الامير الدقُّوري نبوــ اوشالليمِ الى الاعتـراف بـان الضيعتين المتنازع عليهما كانتا تعودان لغاية عام 689ق.م. الـى البـابليين. وهكذا اعيدتا الى عداد ــ إيبني [12].

هذه القصة تدلل على الاهتمام الذي أبدياه الملكان أسرحدون وابنه شـمش ــ شوم ــ اوكين. ومع ذلك فانهمـا لـم يفلحـا فـي اعـادة تـرميم بابـل الارستقراطية القديمة بالكامل. ففي سنة 689ق.م. أُميتت المدينة ميتة ابديـة. وبابل المعاد بنائها في سنة 678ق.م. هي بابل جديدة بقدر ما ولد فيها مجتمع بابلي جديد. في بلاد بابل شُرع باجراء انقلاب زراعي، حيـث بُعثـت الملكيـة

الصغيرة للارض. كما بعثت مواطنة بابلية مفعمة بالدماء الجديدة بعد ان كانت قد تدهورت بالتمام في عشية سنة 689ق.م.[13].

والان فلنقطع وقتياً قصة ولادة بابل الجديدة لنلقي علـــى انفـــسنا الـــسؤال التالي: ترى لماذا تعين على اسرحدون و الارستقراطية الاشورية المساندة لـــه ان يعيد احياء بابل و المواطنة البابلية المشاحنة لـــبلاد آشـــور ؟ فالمحـــصلة النهائية لتلك السياسة تجسد بهلاك بلاد أشور باسهامة نشطة من جانب بابـــل المعاد احياؤها. ترى هل كان أسرحدون و المحيطون به قصيري النظر لدرجة أنهم بايديهم صنعوا دفاني وطنهم ؟

الجواب على هذه التساؤلات يوفره تحليل وضع المجتمـــع الاشـــوري فـــي القرن السابع قبل الميلاد. لقد تحدثنا فيما تقدم عن إصـــلاحات تيكَلاتبالاســـر و النتائج الناجمة عنها. لقد هلك الشعب الاشوري وذاب في المتكلمين بالاراميـــة من سكان الامبراطورية غير المعنية ببقاء الدولة الاشورية. وهؤلاء الـــسكان مع كونهم قد اطلق عليهم اشوريين الا أنهم كانوا يمقتون بلاد آشـــور، ولكـــن من دون أن تتوفر لديهم قوى وامكانات لمقاومة نيرها. من شعب بلاد آشـــور بقيت حفنة من ارستقراطيي المدن الاشورية القديمة ــ آشور، نينوى، كـــالح، أربيل، حران، أما حولها فكان هناك بحر من الكراهية الحامية لحـــد البيـــاض. فتلك الحفنة عاشت على حساب الجيش الاشوري الذي يوما بعد يوم مـــا عـــاد في تركيبته آشوريا. وهذا ما آلت اليه بلاد آشور في القرن السابع ق.م.

ممثلو الطغمة الاشورية الحاكمة الاكثر فطنة أدركوا انه لايمكن الاســـتمرار أطول على هذا النحو. وها هي أبصارهم باتت ترنو صوب بابل. وفـــي هـــذا الشعب الشقيق وجدوا الخلاص الوحيد. بلاد آشور لم تستطع تجنب الكارثة الا

اذا اتحدت مع بلاد بابل. الدولة المثنوية الاشورو ــ بابلية هذا ما توصلت اليه الطغمة الاشورية الحاكمة في البحث عن خلاص من الانهيار القادم. بهذا يفسر إحياء بابل من قبل أسرحدون.

بيد ان مثل هذه السياسة لاقت في بلاد آشور ذاتها خصما تمثــل بــالفريق الاشوري، بمعنى أخر بالطغمة العسكرية الاكثر تعطشاً للدماء، والاقصر نظــراً من بين الصفوة الحاكمة. وهذه الطغمة سعت الى ان تلعب الــدور الاول فــي الدولة، ولهذا كانت في غاية التحسب من فكرة المثنوية الاشــورو ــ بابليــة، ورأت في المواطنة البابلية منافسها الرئيس.

وبقيت المسألة البابلية تشكل لب الصراع السياسي الداخلي في بلاد آشور. أسرحدون لم يتجرأ على ان يخطو الخطوة الحاسمة في احياء بابــل البابليــة، فهو حتى ذلك الحين لم يعد لبابل الحكم الذاتي. وصنم الاله بــيلا ــ مــردوخ رمز وجود دولة بابل بقي قابعا في الاسار الاشوري في مدينة آشور التي نقله اليها سنحاريب غنيمة. بابل ظلت بلا ملكها، كما استمرت إقليما اشــوريا مــع كونها ذات امتيازات. ومادام مثل هذا الوضع باق ما كان بالامكان التحدث عن اية مثنوية أشورو ــ بابلية.

هنا يجدر توضيح بعض خصائص النظام السياسي لبابل والــذي كــان قــد تشكل تدريجياً على مدى القرون الثاني عشرة ــ السابع ق.م. بابل ليس فقــط لم تكن إستبداداً شرقياً، وانما لم تكن حتى مملكة بالمفهوم الكامل. أنها أقــرب ما كانت جمهورية ارستقراطية ذات ملك ــ مــدير منتخــب، ويعــاد انتخابــه سنويا. اعادة انتخاب الملك كانت تجري إبان الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة

في نيسان – الشهر الاول في تقويم البابلي القمري والذي يصادف شهري أذار – نيسان في تقويمنا الشمسي.

في رأس السنة الجديدة تنطلق من بارسيبا الى بابل عبر قناة نار – بارسيبا مركبة نهرية مقدسة تحمل صنم الاله نبو رئيس آلهة بارسيبا. وعند باب الاله اوراش في بابل ينقل الصنم الى البر، وبموكب مهيب يمر عبر هذه الباب. وعند شارع الاله نبو يحمل الى معبد أساكَيلا مسكن الاله بيلا والد الاله نبو. الى هناك في اساكيلا كان الملك يحضر، ينزع الشارات الملكية، يؤدي جملة مراسيم ثم يأخذ بيد الاله بيلا بحضور الاله نبو. وبعدها يُعَدُّ منتخباً ويستلم من جديد شارات الجلالة الملكية.

هذه الطقوس كانت تتكرر سنوياً، ولكن حتماً بوجود صنم الاله بيلا، صنم الاله نبو وبمشاركة الملك. بدون هذه الشخصيات الثلاثة لايمكن لعيد رأس السنة الجديدة أن يحصل.

إثر موت الملك كان خليفته يرتقي العرش لغاية أقرب رأس سنة جديدة فتجري المراسيم التي سبق وصفها. الملك في الوقت ذاته كان يُعدُّ مصدر التسميات. فعدد السنين لدى البابليين كان يحسب بعدد سنوات حكمه ملكا. فالسنة الاولى لهذا الملك أو ذاك كانت تبدأ بعد أول رأس سنة جديدة تعقب تتويجه. السنة السابقة، سنة وفاة (أو نهاية ملكية) الملك السابق وارتقاء الملك الجديد للعرش كانت تسمى << السنة كذا للملك فلان >> و << سنة ابتداء مُلْك فلان لبابل >>. ولهذا فمادام صنم الاله بيلا غير موجود في بابل فلا احتفال برأس السنة الجديدة، وما من ملك ولاحتى بابل الدولة.